جبل عامل وثقافة النهضة

الشيخ د. جعفر المهاجر

سأقص عليكم فيما يلي قصة الولادة السكّانيّة والنهضويّة لهذه البقعة من الوطن التي من أسمائها جبل عامل . واسمها الرسمي اليوم ، وفقاً لِما جاء في المراسيم التشريعية التي قسمت لبنان إدارياً ، لبنان الجنوبي . وأنا أُعلن أمامكم ، بما لي من سُلطة ، هي حصراً سُلطة الباحث على موضوع بحثه ، أنني أتحفّظ بشدّة على هذا الاسم الإلحاقي . لأنه يبدو لي وكأنه يقول ، إن هذه البقعة لا شخصيّة مستقلة لها ، تؤهّلها للاحتفاظ باسمها التاريخي . مع أن جبل عامل كان كياناً قائماً بنفسه منذ قرون قبل الإسلام . كياناً سُكّانياً ، يمكن أن نقرأه في اسمه ، من حيث أنه ينسبه إلى القبيلة التي نزلته ، عاملة ، واتخذته وطناً عدّة قرون . ولم تتركه إلا بعد وبسبب الفتح الإسلامي . هذا الاسم زاده ألقاً ومعنى توهّجه المعرفي ، بوصفه مركزاً علمياً ، ابتداءً من أواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، الذي منحه صفة الكيان ، لكن بالمعنى الثقافي هذه المرّة . وعلى كل حال ، فأنا لا أرى أي سبب معقول لحرمان جبل عامل من اسمه التاريخي . خصوصاً وأنه يرتبط بفترة مُشرقة من تاريخه . الذي هو جزء ثمين ونبيل من تاريخ الوطن كله . وخصوصاً أكثر لأن بقاعاً أُخرى من الوطن حفظت لها المراسيم التشريعيّة نفسها أسماءها التاريخية ، مثل : كسروان ، المتن ، جبل لبنان ، البقاع .

سنبدأ بالولادة السكّانيّة ، وإن شئنا قلنا البشريّة ، ونُثنّي بالولادة النهضويّة . وعندما نقول " ولادة " فيجب أن يُفهم من ذلك أن جبل عامل لم يكن ثم كان سكانياً ونهضوياً . وهذا صحيح ومقصود . ثم أن فصل قصتنا إلى قصتين ، مع أن الموضوع واحد ، ينطوي على إشارة إلى أنهما من حُبكتين مختلفتين ، وأنهما حصلتا في زمنين ، وأيضاً على أن لكلّ من القصتين أبطالها ، كما في كل قصّة . لكن هناك أمراً مشتركاً بين القصتين ، هو أنهما كلتاهما تقعان في الجانب غير المرئي من تاريخنا المكتوب . لأن مؤرخينا الأشاوس منحوا كل اهتمامهم لأصحاب السلطان . وأغمضوا أعينهم استنكافاً عن كل ما يتصل بتاريخ الناس . فضاع من جرّاء هذا التاريخ الأعور تاريخ كثير . من هنا فإنكم لن تجدوا مادة قصتينا في الأصول التاريخية ، إلا في مواطن نادرة هي حصراً حيث تتقاطع أخبار أصحاب السلطة مع شؤون العباد . سأترك لكم أن تتخيّلوا أن بناء القصتين كان أشبه ببناء قصر من حبّات رمل ، حبّة بعد حبّة . والله المُستعان .

(١)

وُلد جبل عامل سكّانياً وسط الآلام . كانت ولادته إحدى أعراض البعثرة السكّانيّة الهائلة التي أنتجتها الحملة الصليبية الأُولى التي احتلّت القدس ، وارتكبت فيها المذبحة الشهيرة . واتخذت منها قاعدة للانتشار في مختلف الاتجاهات ، ابتغاء كسب أكبر رُقعة من الأرض ، لتكون عمقاً استراتيجياً وإنتاجياً لدولتهم العتيدة . وما كان في وسع الناس القاطنين بسلام في فلسطين والأردنّ إلا أن يهجّوا من وجه الهول الزاحف ،

وأن يلجأوا إلى أقرب الجبال منهم . وهذا يفسّر لنا امتلاء جبل عامل فجأة بالسكان ، بعد أن كان شبه يباب منذ الفتح الإسلامي . شأنه في هذا شأن كل الجبال في المنطقة الشاميّة . وهكذا التقى تجمّع سكّاني ظرفي متنوّع ، لأُناس اقتُلعوا اقتلاعا من أرضهم . وهذا يكون عادةً ظرفاً مؤاتياً لإنتاج مجتمعات في غاية الحيويّة . لأنه يكون مُلتقى لخبرات وأنماط إبداع وثقافات ، تتلاقح وتُنتج مركّباً جديداً خلاّقاً . وربما كان في هذه الملاحظة مفتاح ما يأتي من تاريخ جبل عامل .

ما إن نزل أولئك النازحون أنحاء الجبل حتى لحق بهم الاحتلال . وغدا الجبل إمارة صليبيّة قاعدتها تبنين ، حيث بنى المحتلّون قلعتهم الشهيرة . ومن هنا نعرف أن تمصيره قد ترافق مع احتلاله . وهذا هو السبب في أن من قُراه ما لا يزال يحمل اسماً من أصل فرنسي ، اللغة السائدة بين المحتلّين . ومن ذلك : باريش ، تبنين ، أرنون ، طلّوسة ، دوبيه ، شلعبون وغيرها . ورزح أبناء الجبل مائة وأربعة وثمانين سنة عداً تحت احتلال قاسٍ لا يرحم . كانوا أثناءها أقناناً ، عبيد أرض ، أو مَن هم بالعبيد أشبه، يملكهم عملياً مالكُ الأرض بالاحتلال ، ويقاسمهم غلال أرضهم . وعاشت أجيال منهم وماتت هذه الحياة البائسة الزريّة .

كان أهل جبل عامل ، في وضعهم هذا ، أضعف بكثير من أن يجترحوا ما من شأنه أن يدخل تحت اسم مقاومة الاحتلال . خصوصاً وأن العالم الإسلام من أقصاه إلى أدناه قبع عاجزاً في حالة أشبه بالاستسلام .

بدأ ميزان القوى يتحوّل لغير صالح المُحتلّين بظهور نور الدين محمود بن زنكي السلجوقي . الذي نجح في توجيه ضربات قوية للصليبيين . لكننا طوال المدة التي عمل فيها لم نشهد أي رجع لدى أهل الجبل . والظاهر أن السبب يعود إلى أن ميدان المعارك التي خاضها كان بعيداً عن أرضهم . أضف إلى ذلك أن نور الدين ، مثل كل الأتراك ، حمل روحاً مذهبية حادة جداً ، حكمت أداءه السياسي . ومن ذلك أنه رفض بعناد عروض الوزير الفاطمي القوي ، الأفضل بن أمير الجيوش ، بإقامة تحالف عسكري بينهما . ولا ريب أن تحالفا كهذا كان سيضع الصليبيين بين فكّين قويين . ثم لا ريب أن رفضه هذا لا يدل إطلاقاً على أنه كان يمنح الأولويّة المطلقة للنصر على العدو .

هذه الصورة بدأت تتغيّر جذرياً بمجئ صلاح الدين . وقد كان على خلاف خاله نور الدين رجل سياسة من طراز رفيع . يعرف جيداً كيف يُدير القوى التي بين يديه ، أو التي كان في وسعه أن يكسبها إلى جانبه . كما أنه كان بعيداً جداً عن النظرة المذهبية الضيقة التي خضع لها سلفه . ولكي تتمّ المقابلة بين الرجلين ، نذكر أن أول نصر كبير له على العدو حصل على أر ض جبل عامل . وذلك في معركة سهل مرجعيون بتاريخ ٣ محرّم ٥٧٥ هـ / ١٠ حزيران ١١٧٩ م . كما نذكر أنه أوكل إلى ابن أخيه فرّوخ شاه ، والي دمشق ثم بعلبك ، إبقاء ممرّ الليطاني الموصل بين سهل البقاع وجبل عامل منطقة تماسّ ساخنة مع العدو . تتخذه القوّات الإسلامية مسلكاً للغارة على الأرض

المحتلّة . غارات متتالية تولاّها فرّوخ شاه دونما كلل . متبعاً أسلوب الغارات الخاطفة ، لعجزه عن مواجهة العدو في معركة فاصلة .

في هذا الإطار بدأ طور جديد من تاريخ جبل عامل ، نقرأه في بروز وسيرة البطل حسام الدين بشارة العاملي .

برُز حسام الدين بشارة أول ما برُز بوصفه ضابطاً في عسكر صلاح الدين . ثم إذا به فجأة الأمير حسام الدين ، فحاكم جبل عامل . ثم المُقدّم على كل الأمراء المحيطين بصلاح الدين . ولكلٍّ من هذه المراحل الثلاثة تاريخه الدقيق المنصوص عليه في أُمهات كتُب تاريخ الفترة .

لكن علينا قبل أن نشرع في تبيان مغزى كل مرحلة مرحلة من هاتيك الثلاث ، أن ننصّص على أمرين :

الأول : أن منصب الأمير كان في ذلك الأوان منصباً عسكرياً ، أمير عسكر. يعني حصراً أنه قائد جيش من الجيوش ، التي كانت تأتمر سياسياً واستراتيجياً بأمر صلاح الدين . ولكنها قتالياً كانت تتقدّم أو تنسحب بأمر أميرها المباشر .

الثاني : أن الأمير بشارة كان الأمير العربي الوحيد بين حشد من الأمراء الأكراد والأتراك ، القادمين من ديار بكر وآسية الصغرى وشمال العراق وسورية . من مثل : جندر ، كرجي ، إياز ، سنقر ، يازكوج ، جورديك ، جهاركَس ، قراقوش .... الخ . كل أمير من هؤلاء انضم بعسكره إلى التحالف الذي يقوده السلطان ، أي صلاح الدين . ولقد لاحظنا أنه الوحيد من بين الجميع الوحيد الذي لا نجد له ترجمة مستقلّة في كُتُب التراجم والسّيَر الكثيرة ، التي اعتنت بالتعريف بهؤلاء القادة وبأعمالهم . ودلالة هذه الملاحظة غير خفيّة .

أول ذكر للأمير بشارة يأتي عرَضاً ، بمناسبة تكليفه بمهمّة عسكريّة من قِبل صلاح الدين ، بتاريخ ٨ جمادى الآخرة ٥٨٢ هـ / ٢٧ أيلول ١١٨٦ م . يُذكَر هنا باسمه مُجرّداً " حسام الدين بشارة " ، دون لقب الأمير . ونحن نفهم من هذه المعلومة أنه في الوقت الذي كان فيه جبل عامل يرزح تحت الاحتلال كان فريق من أهليه قد بدأ ينظّم نفسه في عسكر صلاح الدين ، تحت قيادة حسام الدين . ولنعتبر هذه النتيجة بداية إضاءة على نقطة مُعتمة تماماً من تاريخ جبل عامل .

في أوائل العام ٥٨٥ هـ / أوائل شباط ١١٨٩ ولاّه صلاح الدين على عكّا ، بعد أن عدل عن هدمها وقرّر تحصينها . في هذا التاريخ كان يحمل لقب الأمير . ونحن نفهم من هذا أن التشكيل العسكري الذي كان يقوده قد غدا كبيراً ، بحيث أنه يصلح أن يكون محل اعتماد في المهام العسكريّة الخطيرة . خصوصاً وأن ولايته على عكّا بعد

تحريرها قد حصلت في ظلّ أراجيف بأن الصليبيين يُعدّون لحملة عسكريّة كبيرة لاستعادة المدينة . ولقد حصل ذلك بالفعل ، وسقطت عكّا . وعلى الأثر ولاّه صلاح الدين خط بانياس ، ومنه جبل عامل . وهكذا حظي الجبل بأول والٍ عليه من أبنائه . وهو يُذكَر كثيراً في كُتُب التاريخ المعاصرة بوصفه " صاحب بانياس " . ومع أن صفته الرسمية هي هذه ، فإنه كان يتخذ من تبنين قاعدة له ، ومن قلعتها الحصينة منطلقاً لعملياته العسكريّة ضد العدو المتحصّن في صور . المدينة الوحيدة الباقية آنذاك بيد الصليبيين ، بعد تحرير المنطقة الممتدّة ما بين صيدا وعكّا ، بما فيها الأعالي الشرقية ، التي منها جبل عامل . ولم يبقَ بأيدي الصليبيين سوى حاضرته الساحلية صور . وكان هو مكلّفاً بالتضييق عليها ، و" أميراً على العسكر المُرصَد لحفظ البلاد من ذلك الطرف " ، على حدّ قول ابن شدّاد في (النوادر السلطانية) . ومعلوم أن قلعة تبنين بناها الصليبيون للتضييق على صور قبل سقوطها . وها نحن نرى الآن الأدوار قد انقلبت . وغدت تبنين ، بإدارة الأمير بشارة وعسكره ، تُضّيق على صور المُحتلّة ، وتتولّى حراسة الحدود من جانبها . في هذا الإطار قال فيه العماد الأصفهاني أحد المؤرخين المعاصرين : " الأمير بشارة صاحب بانياس ، الذي لا يرجو منازلته إلا مَن بان فيه الياس " . في حدود ما بحثنا ، فإن هذا هو النصّ الوحيد الذي نوّه فيه أحد المؤرخين بهذا الكبير حقاً بما يستحقّه .

هنا سؤال برسم التاريخ السلطوي ذي العين العوراء : أين كان الأمير بشارة وعسكره من أبناء جبل عامل يوم حطّين المجيد ؟ لقد لاحظنا أنه ، أي بشارة ، كان عام ٥٨٢ هـ ضابطاً ليس له كبير شأن . وأنه عام ٥٨٥ هـ أصبح أميراً وقائداً على عسكر كبير فعّال توكَل إليه أخطر المهام ، أي أنه ارتقى بنفسه وبقومه هذا المُرتقى الصعب في بُرهة ثلاث سنوات . هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنه من شعب طوّحت به مقاديره ، فخسر أوطانه وتجمّع هاهنا ، مجرّد تجمّع ظرفي لأناس مغلوبين على أمرهم. وليس كباقي الأمراء والعسكر المحيطين بصلاح الدين ، قادمين من شعوب تمرّست بفنون القتال . الجواب بالتأكيد ليس في نصوص هذا التاريخ السلطوي ، المُسخّر للكبار وحدهم . هنا علينا أن نقسر هذا التاريخ على أن يفتح كلتا عينيه ، ويفصح عمّا كتمه من أخبار العباد البسطاء . سبيلنا في هذا الاستنطاق الصعب أن نجمع بين معلومتين أو أكثر لنصِل إلى المجهول . إذن فلنُضف إلى ما عرفناه حتى الآن من سيرته أن وقعة حطّين قد حصلت بين ذينك التاريخين ، تحديداً يوم ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ / ٢ تموز ١١٨٧ م . وعلى الأثر برُز الأمير بشارة ، وكسب عسكره ما أشرنا إليه من ثقة ، وصار محل اعتماد .لِما كان له ولعسكره من حميد الأثر يوم حطّين و لا شك . ذلك أننا لا نتصوّر إطلاقاً سبباً لارتفاع شأن قائد عسكري في زمن الحرب إلا البروز وإثبات الكفاءة وقت الشدّة . وقد كانت معركة حطّين المعركة الوحيدة الكبرى في الفترة التي برُز فيها الأمير حسام الدين وعسكره . هكذا تصنع المعارك الفاصلة الأبطال . وكم لهذا من أمثال .

نختم هذا التعليق من سيرة أمير جبل عامل ، الذي اقتصرنا فيه على مايتناسب مع عنوان البحث ، بالإشارة إلى أن الجبل ظلّ يُعرف حتى وقت قريب باسم (بلاد بشارة) ، نسبةً إليه . وكان هذا الاسم الأكثر دوراناً على ألسنة

الناس . في حين احتفظت الأدبيّات بالاسم التاريخي (جبل عامل) . المغزى الكبير في هذا التبدّل يكمن في أنه يُسجّل انطباع الناس عن الرجل الذي نقلهم من وضع النازحين اللاجئين المذعورين ، إلى وضع أصحاب الأرض بعد أن حرّروها بسيوفهم . إن ارتباط الناس بأوطانهم هو في نهاية التحليل ارتباط بذاكرتهم . الأمر الذي كان يفتقر إليه أولئك النازحون الذي تجمّعوا من أنحاء الأردنّ وفلسطين . هكذا ، فعندما منح الناس بلدهم اسم (بشارة) كانوا يسجّلون إدراكهم وتقديرهم لمعنى الخطوة التي قادهم فيها أميرهم مجاهداً وحاكماً وحامياً . وهذا من أعظم وأنبل التكريم .

هكذا ، بإيجاز أرجو أن لا يكون مُخلاً ، وُلد جبل عامل وسط الآلام ، كما قلنا في مطلع هذا الكلام . وها نحن قد اكتشفنا الآن أن الفضل في ولادته هذه الولادة الجديدة هو لمشاركته العالية في أعمال جهاد الغُزاة مُحتلّي أرضه . لقد انتزعنا هذه النتيجة انتزاعاً من التاريخ السلطوي . وأرغمناه إرغاماً على البوح بطرف ممّا أخفاه . مستفيدين من سلسلة من الأخطاء التي لا بدّ له من أن يرتكبها ، والثغرات التي لا بدّ له من أن يقع فيها ، بسبب بؤس منهجه . لأنه ، وهو الملهوف على بسط ظلّ سيده على كامل الحقيقة التاريخيّة ، وتصويره للأجيال القادمة وهو يملأ بحجمه المُهيب كامل المسرح ، مضطرّ اضطراراً لارتكاب سلسلة من عمليّات التلميع والتعتيم وتحويل الانتباه الزائفة ، وأحياناً المفضوحة ، التي يسهل كشفها بالنقد المنهجي . ومع ذلك فإن قسماً من الحقيقة لا بد من أن يضيع . ولهذا كله قصة طويلة ، نأمل أن نرويها في يوم من الأيــام .

(٢)

ما إن تمّ له التحرير حتى اتجه جبل عامل نحو ولادته الثانية . وهي الولادة الأعرف والأشهر التي دخل بها التاريخ بوصفه مركزاً من مراكز العلم . بل أكثرها حيويّة وأبعدها أثراً في منطقة تمتد من الفرات حتى عريش مصر .

إبان الغزوات الصليبية المتوالية دُمّرت الحياة العقليّة العريقة في كل الشام . إمّا بسبب الاحتلال المباشر ، وإمّا بسبب الفوضى التي أحدثتها موجات الغزو . مدينة طرابلس ، التي كانت حتى سقوطها مدينة العلم ، غدت تحت الاحتلال وكأنها مدينة أوروبية في كل شئ. ولمّا تحرّرت دمّرها محرروها لأسباب عسكريّة . أمّا حلب ، منارة الشام الفذّة مدّة قرنين ، فقد دالت أيامها ، وصارت الكلمة فيها للقمع الرسمي ، الذي تولّى كتم أنفاس ما ومَن بقي من مجدها الغابر .

مَن ذا الذي كان يخطر بباله مجرّد خطور ، أن شرف إعادة الروح إلى الحياة العقليّة في المنطقة ستكون بعد التحريرمن نصيب تلك البقعة البائسة الفقيرة ، التي اسمها جبل عامل ؟ وهي الخارجة على التوّ من تحت احتلال قاسٍ لا يرحم ، جثم على صدرها ما يقلّ قليلاً عن قرنين . وجعل من أهلها أقناناً عبيد أرض .

كانوا أثناءها مقطوعين تماماً عن كل أشكال المعرفة . وما كانوا يملكون ، فيما نخال ، إلا انتظار انجلاء ليل الاحتلال الطويل ، ليخرجوا بأنفسهم من وضع الاستلاب الكلّي .

في وقت ما ، يقارب السنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٤م ، خرج من الشطر الصغير الذي بقي حراً من جبل عامل رجل وحيد ، واتخذ طريقه إلى مدينة الحلّة في العراق .ابتغاء طلب العلم . وبهذه الخطوة الصغيرة أعاد الحياة إلى الطريق الموصل بين الشام والعراق . التي غدت الان خالية تماماً من السالكين . وهي التي كانت إلى ما قبل نصف قرن عامرة بالرائحين والغادين. وساهمت مساهمة أساسية في إنتاج حالة معرفيّة عامّة ، كان لها رموزها في مراكز العلم التي أصبحت الآن بائدة .

هذا الرائد هو إسماعيل بن الحسين العَودي الجزيني ، نسبةً إلى مسقط رأسه جزين . البلدة التي ظلّت طاهرة من الاحتلال . صدف عنها في الحملات الأُولى ، لعُسر المسلك إليها ، وجدب أرضها . ولكنه طرقها بعسكره عقاباً لأهلها على مشاركتهم القوية في الدفاع عن قلعة الطور ، التي بناها الملك العادل الأيوبي قبالة عكّا للتضييق عليها مقدّمة لتحريرها . وقد كانت عكا آن ذاك آخر ما بقي في يد المحتلين من مملكة القدس الصليبية . وفي هذا السبيل نظّم حملة من نُخبة الفرسان ، انطلقت من صيدا المحتلَّة ، وصعّدت في الجبال ، ووصلت بالفعل إلى جزين . الخلاصة : أنه بذكاء وشجاعة وتصميم أهلها لم يرجع من الحملة الفاشلة إلى صيدا إلا فرسان ثلاثة .

نشأ إسماعيل بن الحسين العَودي في هذا الجو من الحريّة والاستقلال ، ونُضيف : ومن الفقر أيضاً . ومع ذلك ـ ويا للغرابة ـ فقد رأيناه يأخذ مبادرة غير متوقّعة ، فيشدّ الرحال إلى الحلّة القصيّة . وقضى فيها زمنا ، منصرفاً إلى طلب العلم. ومنها عاد إلى مسقط رأسه . وتوفي سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م . فكان طليعة علماء جبل عامل ، وأول مؤلّف وشاعر عاملي .

من منظورنا العالي في الزمان ، الذي يُتيح لنا رؤية بانوراميّة ، نرى أنه عندما خرج ابن العودي من قريته البائسة ، ويمّم وجهه صوب الحلّة ، كان كمن يضع حجر الأساس لصورة بلده كما ستبدأ في التجلّي غير بعيد . وهو بمجرّد أن اختار هذا السبيل غير المطروق كان يعبّر تعبيراً عبقرياً عن أزمة شعبه الأسير المُستلَب وعن مشروعه للخلاص ، عبر التسامي بذاتيّته الخاصة . إنها تبدو لنا استجابة في غاية الصحّة للحوافز الكامنة في الثقافة السائدة . هو ذا رجل تاريخي بكل ما للكلمة من معنى ، إنسان طليعي أدرك خصوصّيات ومواصفات اللحظة التاريخيّة التي عاش فيها . ونجح في التماهي معها ، وفي العمل بما تقتضيه وتطلبه . وشقّ للناس من بعده طريقاً فسلكوه . وبذلك منح ومنحوا وطنهم هويته التي دخل بها التاريخ .

وتتابع الروّاد على خطى ابن العودي من بعده : جمال الدين يوسف بن حاتم المشغري ، من مشغرة. طومان بن أحمد المناري ، من قرية المنارة المحتلّة اليوم ، أول

مَن وصل إلى رُتبة الاجتهاد من جبل عامل ، وأيضاً أول مَن أسّس لحركة دراسة وتدريس مستقلة . صالح بن مُشرف الطلّوسي ، من طلّوسة . مكّي بن محمد بن حامد الجزيني . ثم الرائد الكبير ، أسطع لمعة سبقت الفجر القادم ، إبراهيم بن أبي الغيث البخاري ، من مجدل سِلِم . وأخيراً ظهر محمد بن مكّي الجزيني ، الأكثر شهرة بلقب (الشهيد الأول) ، بطل النهضة وراعيها ومُغذّيها بفكره وعمله ، ثم شهيدها الكبير . وتربّع جبل عامل على القمّة مدّة قرنين ، كان أثناءها أكثر المراكز العلميّة حيويّة وإبداعاً من الفرات حتى عريش مصر . وأنتج فكراً وأدباً وأدبيات ، ما يزال ما نجا منها من كوارث الأيام القادمة حيّاً حتى اليوم .

(٣)

تلك هي ، باختصار شديد ، قصة أربعة قرون ونيّف من تاريخ جبل عامل . تاريخه البشري ، وتاريخه الفكري . إنها واحدة من أعظم ملاحم الكفاح الإنساني . صمد فيها شعب للتهجير القسري والاحتلال الطويل والاستلاب والإفقار . وصنع بصبره وتصميمه وذكائه واحدة من أعظم النجاحات الإنسانية . أعجب ما فيها أنها ابتدعت نهضة من غير شئ ، مغالبة الفقر . وهذا إنجاز يُخالف قانوناً معروفاً . هل عليّ أن أتحدث في المغازي والعبر التي يمكن أن نستخرجها من هذا التاريخ الحي ؟ ذاك حديث يطول ، سأتركه لمن يحب التأمل . لكنني بدلاً عن ذلك أسأل : كيف ولماذا يغيب تاريخ كهذا عن التأريخ الرسمي الوطني ؟ ! أعلم وتعلمون أنه منذ الطائف هناك مسعى رسمي لكتابة تاريخ وطني أكثر صدقاً ومصداقيّة ، تتولاّه فئة من أهل العلم المختصّين. لم ولن تصِل إلى نتيجة مُرضية . ذلك لأنها مُلزمَة بأن تغرف من المعين الآسن للتاريخ السلطوي . وأقول : خائب حتماً مَن يطمع في ماء شريب مباشرة من نبع بالغ التلوّث . علينا أ ن نلتفت صوب التاريخ الإنساني . وفي هذا السياق علينا أن نستحضر أبطاله ، بوصفهم رموز هذا التاريخ . لماذا يغيب حسام الدين بشارة وإسماعيل العَودي ومحمد بن مكي الجزيني عن تاريخنا الوطني الرسمي ، لصالح الإقطاعيين السّرقَة والقتَلَة ، مُلتزمي رزق وعرق الناس ؟! لا يخطرنّ ببال أحد أنني أدعو لتاريخ مذهبي . كلا ! بل أقول : إن أبطالاً كهؤلاء موجودون بالتأكيد في تاريخ جبل لبنان وطرابلس والبقاع . وما علينا إلا أن نقرأ التاريخ في غير مصادره الرسمية ، لنحرّره من طغيان التاريخ السلطوي ، إذ ذاك سنراهم حتماً ، كما سنرى الإنسان في مُضطرَب حياته اليوميّة ، في أسلوب العيش ، أنماط الإبداع المحليّة ، علاقات الإنتاج ، العادات والتقاليد وأصولها الثقافيّة ، أسماء البلدان والقرى وأصولها اللغويّة أو السكّانية ، التقنيّات ، عالم الأفكار السائدة ، الحركات الشعبيّة .... الخ. الخ. وكلّ من هذه علم مستقل برأسه ، تحت عنوان عريض هو التاريخ علماً . إذ نفعل ذلك سنكون مهيئين لأن نلقّن أبناءنا في معاهدنا تاريخاً بحجم الوطن . وأيضاً ، وربما يكون هذا هو الأكثر أهميّة ، تاريخاً لا يكون من قبيل زرع الريح . إن الوظيفة التربوية لاستحضار البطل ليست ماضوية ، بل مستقبليّة . لأنها تضع أمام الناشئ المقاييس والمفاهيم التي على ضوئها سيمنح الولاء لهذا القائد أو ذاك الزعيم في المستقبل . وأعتقد أننا لسنا بحاجة إلى كثير تأمل كيما نرى العلاقة بين النموذج الذي يستحضره تاريخنا الرسمي ، وبين الخلل السياسي الذي يُعاني منه بلدنا ، مؤدّياً إلى فتنة دمويّة كل بضع عقود .

إن الدروس التي يُطلقها تاريخ جبل عامل برسم الباحثين ، خصوصاً العضويين المُنتمين القلقين ، لجديرة بأن تُقرأ وتُستعاد . شرط أن نقرأه قراءة إنسانيّة ، وليس قراءة سلطوية. نعتقد أن الإنسان ، الإنسان العادي الذي يضطرب في مختلف دروب الحياة ، هو السيّد الحقيقي للتاريخ مُنتجاً ومُبدعا ومتأملاً ، مع أنه قد يكون أيضاً ضحيّته . ولكنه في كل حال مالكه . أمّا السلطة حيث تكون مُنفصلة فصاميّة مُستعلية، وليست تعبيراً صحيحاً عن إرادة الناس واختيارهم ونوازعهم ، فهي كائن طفيلي . يجب أن تُدرس ولكن ، حصراً ، بوصفها هذا . وهذا هو المفتاح الصغير الذي لم يعثر عليه حتى الآن كاتبو تاريخنا الوطني ، وآخرهم المكلّفون بوضع المادة التاريخيّة التي ينبغي أن نلقنها لأبنائنا في مدارسنا ، لتبني وجدانهم ونمط الولاء للوطن الذي يعيشون على أرضه ، وتالياً القاعدة الصلبة التي عليهم أن يرفعوا آساسها في المستقبل .

إن الإصرار على أن يقتصر تاريخنا الرسمي الوطني على التاريخ السلطوي مادة ومنهجاً لهو في معنى التبرّؤ من التاريخ الآخَر الإنساني ، الحقيقي لأنه إنساني . وهولا يعني إلا الاعتراف والتسليم بأننا شعب دون تاريخ . ولأننا ننتمي إلى تاريخنا الإنساني ، ولأننا ذوو تاريخ نبيل ، كتبنا هذا التاريخ لجبل عامل .